المدرسة المغاربية تميُّز رغم التمييز

The specificity of the Maghreb school

د(ة). حورية مدان

جامعة يحيى فارس المدية– الجزائر

الملخص:

نظرةٌ مقارنة إلى حجم الدراسات الإسلامية والبحوث اللغوية بين جناحي العالم العربي، مشرقه ومغربه، كفيلةٌ بالكشف عن اهتمام الباحثين والمؤلفين قديما وحديثا بتاريخ المشرق، والعناية المستمرة للعلماء والمفكرين به، مقابل حداثة تلك العناية، ومحدودية ذلك الاهتمام بتاريخ المغرب. فما أسباب هذا الوضع؟ وما مبرّراته؟

تبوّأ المشرق العربي منزلة الزعامة الفكرية، والصدارة العلمية، في المؤلفات والأبحاث ومختلف الدراسات، بل إنَّ الحديث عن المشرق العربي في نظر البعض، هو حديث عن الأصل، والحديث عن المغرب العربي هو حديث عن الفرع، وتهدف هذه الورقة البحثية إلى توضيح أسباب تلك المفارقة، وملامح العلاقة بين المشرق والمغرب العربيين، من خلال تتبّع خصائص كلّ منهما وخلفيات هذه العلاقة ومدى تفوّق المغرب العربي في علوم كانت حكراً على المشرق.

الكلمات المفتاحية: المشرق العربي، المغرب العربي، ريادة المشرق، استقلالية المغرب، تمييز وتميّز.

Abstract:

A comparative look at the number of Islamic studies and linguistic research between the two parts of the Arab world, Maghreb and Orient, reveals the great interest of researchers and historians and their constant care for orient. What causes this situation? What are its justifications?

The Arab Orient assumed the status of intellectual leadership and scientific superiority in literature, research and various studies .

The purpose of this paper is to explain the causes of this paradox, and the characteristics of the relationship between orient and Maghreb, by tracing their characteristics especially since the Arab Maghreb has been able to excel in science which was exclusive to the Orient.

Keywords: Arab orient, Maghreb, leadership of the orient, independence of the Maghreb, distinction and specification.

مقدمة:

يتّفق المؤرّخون على أنّ الشرارة الأولى لانبثاق الحركة العلمية والأدبية بالمغرب العربي ترجع إلى عهد الفاتحين العرب حين عمد المغاربة إلى الاغتراف من معارف الوافدين العرب، أو الهجرة إلى المشرق العربي للاستزادة من علومهم.

1- ريادة المشرق العربي للحركة الفكرية:

يعدّ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب العربي الانطلاقة الحقيقية لنهضتها الفكرية وتطوّرها العلمي، إذ أقبلت المجتمعات المغاربية على تعلم اللغة العربية، وتعليمها، وافتتحت الكتاتيب لتعليم القرآن الكريم، وازدهرت الحياة الفكرية، سواء في علوم اللغة والأدب، أو في العلوم العقلية العقدية. وفي تلك المرحلة التاريخية كان المشرق العربي أسبق إلى الحياة الفكرية والانبعاث العلمي من المغرب العربي لكون المشرق مهبط الوحي، ومصدر التأليف، بدليل قول مؤلف كتاب (القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية): «كانت القيروان غاصَّة بالعلماء في شتّى العلوم والفنون والآداب، الذين نشؤوا فيها والذين سعوا إلى المشرق ليغترفوا من العلوم هناك، ثمّ قدموا بكلّ ذلك إلى القيروان»[1]، فهذا تصريح بأنَّ المغرب العربي اعتمد في بداية نهضته على المشرق العربي. ثم إنّ الرحلة إلى المشرق «قد استمرّت وازدادت للاغتراف من العلوم، وأخذ أبناء القيروان يجوبون مصر والشام والعراق

[1] محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1408هـ-1988م، ص214.

والحجاز، وغيرها، لتحصيل العلوم، وخاصّة الشرعية منها، وتبحَّر كثير من العلماء في الفقه والتفسير والحديث»[1]. وهي رحلة تبعت الفتح الإسلامي، حين هبّ الأفراد ثمّ الجماعات شادِّين الرحال تجاه المشرق يطلبون شتى العلوم، ويتزودون من المعارف لينقلوها إلى ديارهم.

يقول عبد الله كنّون في هذا الموضوع: «وقد كان الفضل في اتّجاه المغرب هذا الاتّجاه لرجال من أبنائه البررة أرادوا إشباع نهمتهم من العلم فتحمّلوا عن ديارهم ومساقط رؤوسهم وضربوا في طول البلاد الإسلامية وعرضها طلبا للمزيد من المعرفة ورغبةً في سعة الرواية، ثمّ عادوا إلى وطنهم يتفجّرون علما ويلتهبون إخلاصا. فأخذ عنهم من لم يستطع الرحلة من مواطينهم وقاموا جميعا بتأسيس قواعد العلم ومعاهد الدين في مختلف أنحاء البلاد»[2]. وهكذا كانت الانطلاقة في فترة الفتح الإسلامي، وتتحدّث "زيغريد هونكة" عن حضارة العرب خلال الفتح الإسلامي في ردِّها على ادّعاءات الغرب بأنّ العرب لم تكن لهم حضارة خاصّة، فتقول: «أمّا في بلاد المغرب البربرية، وفي إسبانيا حيث كانت الدولة الغوطية الغربية وريثة الاستقلال الروماني والاستعباد والمرض المزمن الذي أصاب البلاد من جرّاء الاستعمار الروماني والذي خلف طبقة من رجال الدين المتعصبين، فهنا لا يوجد شيء، وتنعدم كلّ مقوّمات الحضارة، وعندما جاء الفاتحون وأخذت الموجات العربية تفد

[1] المرجع السابق، ص 242/241.

[2] عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1994م، ص48.

من بلاد العرب ومن سوريا، وليس لهم من شعوب يقتبسون منهم شيئا ما. فهذه الثقافة الرفيعة العالية التي بلغها العرب في إسبانيا هي خير ما يدحض هذه الادّعاءات القائلة بأنّ العرب قد أخذوا الحضارات البائدة وأعادوها ثانية ...والحقيقة أنّ جمال الثقافة الأندلسية لم يكن فارسيا أو يونانيا بل كان عربيا وعربيا فقط، وعندما اختفى العرب من إسبانيا انحطت البلاد وتدهورت حضارتهم وخيّم عليها الموت، ولم تنتج شيئا»[1].

فالحضارة العربية أصيلة بعثها الفتح الإسلامي بداية من المشرق العربي إلى المغرب العربي. يقول "موريس لومبار" في كتابه (الإسلام في مجده الأوّل): «كان الشرق الإسلامي، أي أراضي الساسانيين قديما (العراق وإيران) وأراضي بيزنطية (سورية ومصر) بمثابة بوتقة لصهر مختلف عناصر تركيبية ستنتشر فيما بعد في جميع أنحاء العالم الإسلامي، شرقا نحو آسيا الوسطى، وغربا نحو إفريقية (تونس وشرق الجزائر) والمغرب الأقصى وأسبانيا. ومن هذا الامتداد الحضاري، نشأت في القسم الشرقي في ممتلكات الساسانيين والبيزنطيين القديمة، حركة استمرار تعزّزت وأصبحت قاعدة الانطلاق، وفي القسم الغربي قامت نهضة وتجديد حقيقي »[2].

[1] زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فؤاد حسنين علي، مكتبة رحاب للنشر والتوزيع، الجزائر، 1406هـ/1986م، ص 390.

[2] موريس لومبار، الإسلام في مجده الأوّل (القرن 8-11م / 2-5هـ)، ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 15/14.

وفي الموضوع نفسه، موضوع أسبقية المشرق العربي إلى الحركة الفكرية، يقول توفيق سلطان اليوزبكي: «فالحضارة العربية في الأندلس مرت بأدوار، وخضعت لمؤثرات حضارية منها ما ترجع أصولها إلى الأم (الحضارة العربية في المشرق)، كما خضعت أيضاً لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشأت فيها وبدرجة محدودة»[1]. ومثل هذه الشواهد على أسبقية المشرق العربي إلى النهضة الفكرية كثيرة لا تعدّ، ولا غرابة في الأمر باعتبار أنّ الفتح الإسلامي كان أسبق إليه، ومنه انبعثت الفتوحات الإسلامية إلى أقطار العالم. إلى جانب عوامل أخري يذكر بعضها موريس لوممبار في قوله : «لم يقع أيّ انقطاع في تيّار الحضارة في البلاد القديمة في الشرق (إيران، سورية، وبلاد ما بين النهرين، ومصر)، بل اتّصلت وشائج الحضارة البيزنطية الساسانية بالحضارة الإسلامية، واستمرّت المدن والمصانع والحرف والفنون كما كانت في السابق. والشرق كان مستودعا لجميع القوى الحضارية المحرِّكة: الإسلام واللغة العربية، والخصائص التي تميِّز الجنس السامي والعنصر الإيراني– الإطارات الذهنية، وطرق التفكير والطرق التقنية والأفكار السائدة والأشكال الفنية.

وأمّا بلاد المغرب (افريقية والمغرب وصقلية واسبانيا) التي ستتلقى هذا النفوذ، فهي بلاد خضعت لنفوذ البربر ويسود فيها نمط الحياة الزراعي، وأسلوب معيشة البدو والرحل، والماضي الحضري الفينيقي والروماني فيها أصبح منسيا، إن

[1] توفيق سلطان اليوزبكي، الحضارة العربيّة في الأندلس وأثرها في أوربا(مقال)، مجلة آداب الرافدين، العدد 13، ص9–10.

لم تعف آثاره تماما»[1]. فحين الفتح الإسلامي لم يكن المغرب العربي في مثل حال المشرق العربي في استقراره وإمكاناته الاقتصادية أو الاجتماعية لذا لا مجال للمقارنة في بداية النهضة الفكرية بل ولا مجال للاستغراب حين نسمع بأنّ «حاشية الأمراء كانوا دائما يترصدون التغييرات التي تطرأ في حياة القصور في المشرق ليقلدوها. ويقول هؤلاء إذا سمعوا نعيق الغراب أو طنين الذباب يأتي من سورية أو العراق، خرّوا ساجدين»[2]. فالتقليد أو النهل من منابع المشرق المعرفية كان أمرا طبيعيا في بداية النهضة في المغرب العربي، ولكن السؤال الذي يطرح الآن: هل استمرّ الأمر على حاله بعد الفتح الإسلامي ؟

2- استقلالية المغرب:

تأسست الانطلاقة الحضارية على الفكر العربي المحض، ولكنْ وإن كانت بلاد المغرب العربي، اعتمدت المشرق العربي مصدرا لنهضتها الفكرية والعلمية، إلا أنّها استطاعت أن تحقق استقلالها الفكري بل وأن تؤثر بدورها ثقافيا وتأليفا بما أنتجه علماؤها في مختلف المجالات المعرفية.

فالجسر الممدود منذ القديم بين المشرق والمغرب العربيين أتاح للمجتمعات المغاربية التزوُّد بكثير من العلوم والآداب، وأن تغترف من الحياة الفكرية المشرقية، وتتفاعل معها، مما سمح للمجتمعات هنا وهناك أن تتلاقح أفكارها وتتكامل، علميا

[1] موريس لومبار، الإسلام في مجده الأوّل، ص 79.
[2] المرجع نفسه، ص 126.

وثقافيا، اجتماعيا واقتصاديا، وازدهرت العلوم بمختلف فروعها بفضل الاتصال الفكري والمعرفي بين الجانبين. ولكنه لم يكن جسرا أحادي الاتجاه، وإنما كان لأبناء المغرب العربي تأثيرهم أيضا. يقول رابح بونار: «لا شك أنَّ البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز (99-101هـ) كانت هي الشرارة الأولى في بعث تيّار ثقافة عربية لم تمرّ فترة طويلة حتى أعطت نتائج قيِّمة خصوصا في العلوم الدينية.

إنَّ كلّ فقيه أو حافظ للقرآن استقرّ به المقام بالقيروان وغيرها من الحواضر الهامة، نشط في التعليم، وجدَّ في تحفيظ القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ومأثور النابغين أطفال البلاد وكبارها. وبعد مرور فترة قصيرة على تاريخ الفتح الإسلامي، ظهر من أبناء البلاد الأصليين والمولدين مَن تعاطى الأدب وأجاد فيه ودرس ما أثر عن العرب من شعر ونثر فتأثر به وحاكاه واعتنى باللغة العربية لأنها لسان الإسلام»[1]. فالبلاد المغاربية لم تكن مستقبلة فحسب، وإنما تفاعلت مع المعارف الوافدة، واتخذت لها مكانة ذات أثر في العلوم التي أفادتها، وهذا التحوّل كان واضحا إذ يقرّ "رابح بونار" بتلمذة المغاربة ولكنها تلمذة مؤقتة، فيقول : «ولم يستطع المغاربة أن ينبغوا في الشعر والنثر في أوائل هذا العصر

[1] رابح بن أحمد بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى للطباعة والنشر، 2000م، ص 47.

لأنّهم كانوا في في طور التلمذة، وما إن توسَّط القرن الثاني حتى أخذوا في المساهمة والإنتاج»[1].

وفي كتاب (القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية) يقول المؤلف عن أبناء القيروان: «ويكفيهم شرفا بدون تحيّز، أنّهم وهم القادمون لأجل التعلّم، أن يكون عندهم من الزاد الفكري ما يستطيعون أن يناظروا به، وينافحوا عنه، ويحموا الخصم إذا حاول أن يزدريهم»[2]، ثمّ يضيف: «وهكذا نرى كيف يروي كبار علماء مصر والكوفة والمدينة عن علماء القيروان وأبنائها، بما يبيّن لنا بعضا من جهود أبناء القيروان في المشرق، وأنَّ القيروان مع تأخّر تأسيسها، فقد حازت شرف الانفراد ببعض الأحاديث للرسول عليه الصلاة والسلام مثل غيرها»[3].

3- بعض ملامح الحركة الفكرية في بلاد المغرب العربي:

تفرّدت بلاد المغرب العربي بكبار العلماء الذين نافسوا إخوانهم تفوّقا وتبحّرا في علومهم. فابن معطي الزواوي من مواليد بجاية (564هـ- 628هـ) شاعر وأديب ونحوي، هو «صاحب الألفية في النحو المتقدّمة زمنا والمتفوّقة على ألفية ابن مالك، وتدلّ على ريادته في علم النحو، ورغم ذلك فقد تقدّمت ألفية ابن مالك لسهولتها في الحفظ، ولابن معط قصيدة في القراءات السبع ، وهي تعتبر، مع

[1] المرجع نفسه، ص 50.

[2] محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص 451.

[3] المرجع نفسه.

الألفية، من الشعر التعليمي. الألفية في علم العربية هي التي أوحت إلى ابن مالك بألفيته، وقد اعترف له بفضل السبق»[1].

واللغوي والنحوي محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، وهو ابن المغرب (ت 723هـ)، الشهير بابن آجروم، نسبة إلى مؤلفه "المقدمة الأجرومية في مبادئ علم العربية"، والكلمة تعني (رجل الدين والزهد) قيل إنه ألّفها وهو مقابل الكعبة، و«وظلت تدرَّس في المعاهد الإسلامية عبر بلاد المغرب والمشرق إلى وقتنا »[2]. وهو أوّل كتاب يُطبع في إيطاليا باللغة العربية.

والشاعر الحسن بن هانئ (ت 362هـ) الملقب بمتنبي المغرب والأندلس تفرّغ لمدح المعز لدين الله الفاطمي «وعندما رحل المعز إلى القاهرة أخذ شاعره معه لأنه كان يطمح إلى أن يباهي به أهل المشرق كما تباهوا بالمتنبي، لذلك سمّي ابن هانئ بمتنبي المغرب»[3].

والعالم المفسر عبد الرحمن الثعالبي (786هـ- 875هـ) ابن الجزائر الذي خلَّف "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" في أربعة أجزاء، و"روضة الأنوار ونزهة

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (السلسلة الأولى) من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2015م، ج2، ص 470-471.

[2] المرجع نفسه، ج2، ص 470.

[3] المرجع نفسه، ج2، ص 554-555.

الأخيار في الفقه" و"جامع الهمم في أخبار الأمم"، وغيرها من المؤلفات، وعرف عنه قرض الشعر إلى جانب كتابة النثر.

أشرقت شمس الثقافة الإسلامية على المغرب العربي الكبير، فشملت كلّ المجالات العلمية والمعرفية، وكثرت المؤلفات، وانتشرت مكتبات الوقف في الأندلس والمغرب، وكان شعب الأندلس محبا للعلم «وكان الرجل ينفق ما عنده من مال حتى يتعلم، ومتى عُرف بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال، ويشير الناس إليه بالبنان»[1]. وفي المغرب العربي، وفي تيهرت، وجدت المكتبة المسماة المعصومة، التي جمعت كتبا نادرة ومخطوطات قيّمة «ويقال إنها كنت تضمّ قرابة ثلاثمائة ألف مجلد»[2].

ويحفظ التاريخ أسماء طبّق صيتها الآفاق، وشخصيات يذكرها التاريخ ولا يتبادر إلى الذهن أنها من أصول مغاربية من مثل: ابن حزم الأندلسي (384هـ-456هـ)، والفقيه والقاضي والطبيب والفيلسوف ابن رشد(520هـ-595هـ)، صاحب: "تهافت التهافت" و"فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" و"الكليات في الطب"، وإبراهيم بن موسى الشاطبي (ت 790هـ) عالم الشريعة والعربية، وابن خلدون (1332 - 1406م) ابن تونس وخريج جامعة الزيتونة، صاحب المقدمة المشهورة ومؤسس علم الاجتماع، ومؤلف كتاب (العبر وديوان

[1] مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، ط5، 1983، ص 71.

[2] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1384هـ/ 1965م، ج1، ص 175.

المبتدإ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، وأحمد بن يحي المقري[1] التلمساني (1578–1632م)، مؤرخ حضارة الأندلس، والقائمة طويلة لعباقرة المغرب العربي الكبير، الذين تصدّروا صفحات التاريخ المشرقة دون أن يكونوا مشارقة، ويلاحظ أنّ هؤلاء العلماء كانوا موسوعيين، إذ لم يكونوا متخصّصين في مجال علمي ومعرفي واحد «فقلَّ من تجده متبحرًا في علم واحد أو علمين، بل فيهم من يعد من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين»[2]، وأسماء هؤلاء تكفي للاستدلال على أنّ بلدان المغرب العربي موطن الحضارة والفكر والمعرفة، وأنها ولادة للعلم والعلماء منذ القديم.

ولم يتوقف تأثير المدرسة المغاربية عند قومية محددة، بل شمل البشرية، وخدم الإنسانية، إذ شارك علماء مغاربة في تشكيل الحضارة العالمية في شتى العلوم والمعارف تاركين بصماتهم المؤثرة في التطور العلمي التاريخي باعتراف الغرب.

ومن هؤلاء نجد على سبيل التمثيل ابن البناء المراكشي (654هـ–721هـ)، وهو عالم في الرياضيات والفلك والطب من أهم أعماله: "توضيح النظريات الصعبة والقواعد المستعصية في الحساب"، وقام بالعديد من البحوث عن الكسور،

[1] مقرة من قرى تلمسان.

[2] مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، ج3، ط1، 1940، ص 331.

كما وضع قواعد لجمع مربعات ومكعبات الأعداد، ومن كتبه: (تلخيص أعمال الحساب) الذي يعد من أفضل الكتب في علم الحساب في ذلك العصر. والإدريسي (493هـ- 559هـ) وهو عالم من كبار الجغرافيين في التاريخ ومؤسسي علم الجغرافيا، كما أنه كتب في الأدب والشعر والنبات ودرس الفلسفة والطب والنجوم في قرطبة، استخدمت مصوراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوربية؛ حيث لجأ إلى تحديد اتجاهات الأنهار والبحيرات والمرتفعات، وضمنها أيضًا معلومات عن المدن الرئيسية بالإضافة إلى حدود الدول[1].

وابن بطوطة (703هـ- 779هـ) رحَّالة ومؤرخ من مدينة طنجة في المغرب، يعد من أهم الجغرافيين على مر العصور، حيث قطع أكثر من 75000 ميل من المسافات بمفرده، وقام بتأليف كتابه الأشهر (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، والذي وصف فيه جميع مشاهداته وملاحظاته عن المناطق التي زارها، وتُرجم هذا الكتاب إلى عدة لغات من بينها الإنجليزية والفرنسية الاسبانية والألمانية.

واستطاع ابن بطوطة من خلال رحلاته استكشاف الكثير من التغيرات المناخية في الدول التي سافر إليها، ورصد العديد من الظواهر والأشياء المختلفة التي تحدث داخل الأرض وخارجها، ووضح سواء وجودها أو اختفائها[2].

[1] وكيبيديا https://fr.wikipedia.org/wiki/Al_Idrissi

[2] https://fr.wikipedia.org/wiki/Ibn_Battûta

4- تميّز مستمرّ ولكنّه مغمور:

في العصر الحديث وخاصة مع البعثات العلمية، وهجرة الأدمغة العربية، تطول قوائم العلماء المغاربة الذين يعملون في كبريات المدن الأمريكية والأوربية بمرور الزمن، فنجد العالم الجزائري المتخصّص في عالم الروبوتيك يوسف تومي كمال، وهو من أشهر وأبرز العقول المهاجرة إلى أمريكا؛ فقد نجح في اختراع أسرع روبوت في العالم بإمكانه كتابة1300 سطر في الثانية هذا في عام 1990، فضلا على جهاز سكانير للشركة العالمية سامسونغ ليصبح أكبر مختص في علم الربوتيك والهندسة الميكانيكية[1] ، والعالم التونسي محمد الأوسط العياري وهو مهندس وعالم ومخترع يشغل منصب كبير المستشارين بوكالة الفضاء الأمريكية – ناسا، وبالتوازي رئيس قسم الهياكل الفضائية بنفس الوكالة [2]، إلى جانب المهندس المغربي كمال الودغيري المتخصص في الاتصالات، وأسماء بوجبارة التي جمعت بين أب مغربي وأم تونسية، وهي أول عربية تلتحق بوكالة ناسا، وكذلك العالم الليبي عصام حجي المتخصص في علم الفلك، والحاصل على أول دكتوراه مصرية في علم اكتشاف الكواكب .وهو الآن مدرب فضائي متخصص في تصميم مركبات الفضاء المتجهة إلى أجزاء مختلفة من المجموعة الشمسية.كما أنه يشغل منصب أستاذ لعلوم الفضاء بجامعة باريس بفرنسا[3].

---

[1] يوسف_تومي_كمال. https://ar.wikipedia.org/wiki

[2] محمد_الأوسط_العياري.https://ar.wikipedia.org/wiki

[3] عصام_حجى/https://arz.wikipedia.org/wiki

فالمدرسة المغاربية العلمية معطاء، وأبناؤها لا يقلّون تألقا وتفوقا على إخوانهم في المشرق العربي ولكن، هل من ضرورة إلى هذه المقارنة؟ وما منشأ عدم التكافؤ بين المغرب والمشرق العربيين؟ أهو تراجع في المستوى الفكري والعلمي المغاربي؟ أم هو تجنٍّ على العطاء المغاربي، وقمع له؟ أم هو ادّعاء يكذّبه الواقع؟

ورد في مقدِّمة كتاب (تاريخ المغرب في العصر الإسلامي) : «كانت معرفة عرب المشرق بتاريخ المغرب العربي وحضارته في العصر الإسلامي حتى عهد قريب محدودة تعتمد أساسا على بحوث المستشرقين من الفرنسيين بوجه خاص ودراساتهم عن المغرب»[1]. فعوامل التميّز متوفرة، وخاصة منها البشرية، ولكن الجهل والتعتيم الذي يتعرّض له نتاج الفكر المغاربي شكّل أكبر عائق لبروز ذلك التميّز، ورغم أنّ المغرب والمشرق العربيين يمثّلان جناحي الأمة العربية المتصلين برباط العروبة و روح الإسلام، فإنّ الاختلاف الثقافي والتباين في المستويات الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية بين الجانبين ولد الإحساس بعدم التكافؤ، إحساسٌ يعزّزه تمييز واضح للمشرق على المغرب، وتؤكده حساسية بين الطرفين يترجمها استعلاء من ناحية، وعدم الرضى من ناحية أخرى.

[1] السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، المقدمة.

5- بعض ملامح العلاقة بين المغرب والمشرق العربيين:

من ملامح هذه العلاقة تصدّر النشاطات الفكرية والمعرفية في المشرق العربي صفحات الإعلام المغاربي، واهتمام العلماء والأدباء والمفكرين المغاربة بكلّ ما يصدر عن أشقائهم المشارقة، في حين يتجاهل أهل المشرق أو يجهلون ما يحدث في بلاد المغرب من تطورات وأحداث ثقافية، فكرية وعلمية.

ومن ملامح هذه العلاقة تبوّؤ العلماء المشارقة مكانة الأساتذة المتمكنين، في حين لزمت العلماء المغاربة صورة التلاميذ الذين يتلقون دروسهم من أولائك، ولا يرقون إلى مراتب أعلى من مراتب التلاميذ.

ومن ملامح هذه العلاقة أيضا، أن يظهر المشرق العربي مكتفيا ماديا، مثقفا، أرستقراطيا، مؤدبا، في حين يرتبط المغرب العربي بالفقر، والجهل، والآفات الاجتماعية.

ومن ملامح هذه العلاقة أن تطبع العروبة صورة الشرقي الأصيل الذي يتمسّك بجذوره وبيئته وثقافته ودينه، في حين يقترب المغاربي من صورة الأوروبي في لباسه ولغته وعاداته.

هي ملامح تؤكد «جهل المشرق بالمغرب، كما يؤكد ربط المغرب بالغرب حتى لو كان الأصل ممثلا في ابن رشد»[1].

هي ملامح ساهمت عوامل متعدّدة في إنتاجها، ولكنّها أفضت إلى الإحساس بعدم التكافؤ بين المغرب والمشرق العربيين، والواقع الذي لا يمكن إغفاله هو أنّ المشرق العربي يضمن للمغاربي الانتشار والرواج، ضمن منابره الثقافية والفنية التي تعدّ مرجعية تاريخية أصيلة، فالفنّان مثلا، موسيقيا كان أو مطربا أو ممثلا، أو غير هذا وذاك، إذا رغب في الشهرة كان لزاما عليه أن يحزم أمتعته ويتوجّه إلى إحدى العواصم المشرقية كالقاهرة أو بيروت، أو دمشق، أو حتى بغداد أو الرياض ليشتهر أو يغتني ولا صلة له بطبيعة الصوت، وقوّته الفنية، أو حضور المطرب، وإمكاناته الشخصية، وإنما لأنَّ الفكر دأب على أن يتوجّه إلى المشرق قبلة ارتضاها مرجعية للفنّ العربي الأصيل؛ بدليل أنّ جميع من حقّق بعض النجاح والتألق من فنّاني المغرب العربي، هم ممّن حزموا أمتعتهم وهاجروا. والأديب الذي لا يكتب لدور مشرقية تبقى كتاباته طيّ المحلية. ففي الأدب المعاصر، تطول قائمة الأسماء اللامعة لما يدعى بزمن العمالقة، ومنهم نجيب محفوظ، يوسف السباعي، العقاد، المازني، إحسان عبد القدوس، يوسف إدريس، يحي حقي، توفيق الحكيم، طه حسين وغيرهم كثيرون في حين تظهر أسماء الأدباء المغاربة على استحياء، وكأنها لا تجرؤ على منافسة أولئك في

[1] محمد عابد الجابري وحسن حنفي وفيصل جلول، حوار المشرق والمغرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1990، 104.

مجال الفكر والأدب، حتى وإن بلغوا في بلدانهم المكانة المرموقة من أمثال: عبد الحميد بن باديس، مالك بن نبي، البشير الإبراهيمي، الطاهر بن عاشور، رضا حوحو، وابن هدوقة وغيرهم كثيرون.

6- قراءة لبعض مظاهر التميز:

الواقع أنَّ الجسر الثقافي والعلمي بين المشرق والمغرب العربيين كان ممدودا منذ القديم، منذ بعثات الفتح الإسلامي الأولى، إلى وفود الأساتذة المشارقة الذين استعانت بهم بلاد المغرب العربي في التأسيس لحياتها الفكرية والعلمية بعد خروجها من حقبة الاستعمار المظلمة، وظلّ الأمر قائما على التفاعل والتفعيل بين جناحي الوطن العربي، والتعاون المتبادل، دون أن يكون للاستعلاء مجال من جهة، ولا للشعور بالدونية من جهة أخرى. وشيئا فشيئا وبفعل عوامل متعددة، بدأ الاختلال يدبُّ نحو طرفي العلاقة، فكان لاختلاف السياسات وتصادم المصالح، وتحكم المرجعية **الأنغلوساكسونية** في ثقافة بلاد المشرق العربي، وبصورة أكبر المرجعية **الفرنسية** ببلاد المغرب العربي دورٌ في توسيع الهوَّة بين المغرب والمشرق العربيين، إضافة إلى تباين الأوضاع المالية، والاقتصادية بين الطرفين، وهجرة الكفاءات المغاربية إلى الخارج، وخاصة إلى أوربا، وما رواج الكتب المغاربية المكتوبة باللغة الفرنسية إلا دليل على أنها بفعل وسائل الإعلام الفرنسية والسياسة المغرضة لترسيخ هذه اللغة في المغرب العربي.

وقد شكّلت الهجرة إلى أوروبا ظاهرة كشفت عجز بلاد المغرب العربي الكبير عن الحفاظ على الأدمغة البشرية، والأيدي العاملة فكانت المدن الأوروبية بالنسبة إلى الكتاب العرب، مغاربة ومشارقة، نقطة عبور لا غنى عنها للأدباء المغاربة خاصة لتحقيق الانتشار والعالمية.

فمعاناة مفكري المغرب العربي الكبير ومبدعيه، علماء وأدباء من الإقصاء والإهمال إلا إذا شدّ الرحال إلى المشرق العربي أو الغرب لأمر واقعي مؤكد في كثير من المجالات العلمية والمعرفية. فالجرّاح المتفوّق، والمهندس الناجح، والأستاذ المتمكن، بل والصانع اليدوي الماهر لا يمكنه أن يتألق ويعمل بأريحية ويغتني من مجهوده إلا إذا هجر بلاد المغرب العربي.

وقد يكون للعوامل الاقتصادية والسياسية أثرها في الحركة العلمية والثقافية، فالبلاد التي يعاني نظامها الاقتصادي من تلاحق الأزمات، وترزأ تحت وطأة المشاكل المالية، وتعترض مجتمعاتها العراقيل الإدارية الناشئة عن سوء التسيير، أو ضعف سياسة التخطيط التعليمي والعلمي، مثل هذه البلاد لا يمكنها بحال أن تبلغ شأوا في المجال العلمي والمعرفي، فدور النشر والتوزيع، ووسائل الإعلام تتطلب الاستقرار الداخلي والخارجي، استقرارا بعيدا عن الأزمات والهزات، سياسية وغيرها، وهي الأمور التي تفتقدها معظم بلاد المغرب، إلى جانب تشتت الوعي المغاربي رغم التطور الذي يشهده مجال التعليم الجامعي، والبحث العلمي، ورغم تنشيط الندوات الثقافية المنعقدة في المشرق والمغرب، التي أسست في الآونة الأخيرة للحوار والتقارب بين جانحي الوطن العربي.

ثمّ إنّ نظرة المشرق العربي إلى المغرب العربي مبنية على ذلك الشعور بأحقيته في الصدارة، والأولية، والزعامة الفكرية والمعرفية القائمة على أساس الأسبقية. يقول الجابري معلقا على سؤاله حين كان طالبا في دمشق: هل عندكم ماء؟ : «صورة المغرب في وعي أهل المشرق منتزعة من صورة بعض مظاهر الواقع في المشرق نفسه، وأنّ الحكم الضمني الذي صدر عنه ذلك السؤال حكم مبني على القياس، قياس فرع وهو المغرب، على أصل وهو المشرق»[1].

مرّت فترات تاريخية بين المغرب والمشرق العربيين اتسمت بالتعاون والتكاتف المؤسس على الشعور بالانتماء الموحد، دينيا ولغة ومصيرا، ثم تلتها مرحلة الاختلاف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ليشتدّ الشعور بأصالة الشرق العربي، وفرعية المغرب العربي، وتجاوزت العلاقة بين الجانبين هذا المستوى إلى حدّ التنافر مؤسَّسة على القوميات الضيقة، والإقليميات المفرّقة، فقد حالت دون تواصل المشرق بالمغرب كثيرٌ من الحساسيات والأفكار والاتجاهات العرقية التي تحيل المغرب العربي إلى الماضي ممثلا في الأصل غير العربي، والمستقبل ممثلا في التوجه الأوروبي .

ولكن لا يمكن إغفال الآمال المعلقة على كوكبة الشباب المغاربي المتخرّج من المدرسة المغاربية المستقلة عن الانتماءات الخارجية، والمؤمنة بوجوب التآزر والتكامل، إلى جانب شريعة الحج إلى بيت الله الحرام التي ما فتئت تجمع بين المشارقة والمغاربة، وتؤلف بينهم .

[1] محمد عابد الجابري وآخرون، حوار المشرق والمغرب، ص17.

الخاتمة:

ونختم هذه الورقة البحثية بوقفة تساؤليه: والسؤال الذي ينبغي أن نجيب عنه هو: ما دلالات مصطلحي المغرب والمشرق العربيين؟ أهي دلالات جغرافية، أم ثقافية، أم سياسية؟ هل يمكن اعتمادها رغم وحدة الدين واللغة والتاريخ ووحدة المصير؟

إنّ تاريخ الوطن العربي، وجغرافيته وطبيعته الاجتماعية والثقافية، ووحدته الدينية واللغوية تؤكد جميعها أنّ تسمية المشرق والمغرب العربيين لا مبرّر لها، بل هي تستهدف تذويب الشعور بالوحدة العربية، والقضاء على الإحساس الموحد بالإسلام والعروبة والانتماء إلى التاريخ الواحد، والمصير المشترك. أو كما يقول الجابري: «هذه القسمة نشأت في حضن الاستعمار، تقطيعا للعالم الإسلامي إلى إسلامي وعربي أوّلا، ثمّ تقسيماً للعالم العربي إلى مشرق ومغرب ثانيا»[1].

بل أكثر من هذا، فبلاد المغرب العربي اشتقّ لها اسمٌ مفرِّقٌ تمثل في قولهم (البلاد المغاربية) زيادة في التشتيت، فبلاد المغرب العربي الكبير مطالبة بإعطاء الأولية للفرد المواطن، والحرص على التوزيع العادل للثروات، وتكريس النظام الديمقراطي المتجاوز للخلافات والنعرات، حتى يتحقق الاستقرار الداخلي، وهو ما يتمّ من خلال بعض دعوات الإصلاح، ليستتبّ الشعور بالأمان. وبعد ذلك يتمّ

[1] المرجع السابق، ص 7.

تفعيل الشعور بالوحدة العربية مع الوعي بخطورة القوميات على وحدة الدين الإسلامي، وهذا بتوحيد المناهج التعليمية العربية، وتوسيع نطاق التعامل باللغة العربية مع تجاوز اللهجات المفرقة بين مناطق البلد الواحد.

يقول الجابري: «إنّني أؤمن أنّ المغرب مشرق، وأنّ المشرق مغرب، ولن يفترقا. نحن إخوة، أبناء أب واحد، ولكن ربّما من أمّهات عديدة مختلفة، لسنا توائم، نحن إخوة»[1].

[1] المرجع السابق، ص 145.

قائمة المراجع:

أولا – الكتب:

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (السلسلة الأولى) من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2015م.

2- رابح بن أحمد بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى للطباعة والنشر، 2000م.

3- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فؤاد حسنين علي، مكتبة رحاب للنشر والتوزيع، الجزائر، 1406هـ/1986م.

4- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

5- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1384هـ/ 1965م.

6- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1994م.

7- محمد عابد الجابري وحسن حنفي وفيصل جلول، حوار المشرق والمغرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1990.

8- محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1408هـ-1988م.

9- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، ط5، 1983 .

10- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، ج3، ط1، 1940 .

11- موريس لومبار، الإسلام في مجده الأوّل (القرن 8-11م / 2-5هـ)، ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

ثانيا: المجلات والدوريات:

1- توفيق سلطان اليوزبكي، الحضارة العربيّة في الأندلس وأثرها في أوربا(مقال)، مجلة آداب الرافدين، العدد 13.

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

1- وكيبيديا https://fr.wikipedia.org/wiki/Al_Idrissi

2- https://fr.wikipedia.org/wiki/Ibn_Battûta

3- يوسف_تومي_كمال. https://ar.wikipedia.org/wiki

[4]– محمد_الأوسط_العياري.https://ar.wikipedia.org/wiki

[5] –عصام_حجى/https://arz.wikipedia.org/wiki